كان يسوع ومريم يتكلمان بحكمة عجيبة مع جيرانهما على الطاولة ويأكلان قليلاً مما يُقدّم لهما، لانهما لم يكونا يريدان إدانة حياة الآخرين، ولكن كمالهما بمثل قناعتهما الفريدة. وعندما قربت نهاية الوليمة نفذ الخمر بتدبير من العناية الإلهية، فأشارت مريم الكلية الحنان إلى ابنها بذلك، فأجابها بلطف : ما لي ولك يا امرأة ؟ وتكلم معها هكذا حتى يبين لتلاميذه بأنه لم يأخذ منها طبيعته الإلهية التي بواسطتها فقط يستطيع صنع العجائب. وأفاض في الوقت نفسه في أذهانهم نورا جديداًعن الاتحاد الاقنومي للطبيعة الإلهية والطبيعة البشرية في شخصه.

رأت أمه القديسة في نفسه أن طلبتها قد استجيبت، وقالت بلياقة ظريفة لجميع الخدم : اعملوا ما يأمركم ابني به . وتحول الماء إلى خمر لذيذ كما يرويه الإنجيل.

هذه الأعجوبة ثبّتت التلاميذ وضاعفت عددهم . وصنع يسوع بعدئذٍ كثيراً من العجائب حتى أن القديس يوحنا أكد أن العالم لا يستطيع أن يسع الكتب لو سُردت تفاصيلها، وجميعها محفوظة في السماء حيث ستكون فرحاً للطوباويين.

وكانت الطوباوية مريم الكلية القداسة تعضده غالباً ، لأنها من بعد عرس قانا لم تعد تترك أبداً ابنها الإلهي إلا في بعض المناسبات النادرة. وكانت تسافر مثله سيراً على الأقدام ، ولكن ليس بدون تعب كثير، وحتى بآلام كبيرة بحيث أنها كانت بحاجة إلى سند عجائبي لتستطيع تحملّها. ومع ذلك كان الله أحياناً يجعل جسدها خفيفاً للغاية فتنتقل كما لو أن لها أجنحة .

كل الشريعة الإنجيلية كانت مكتوبة في قلبها . ورغم ذلك لم تكن تتأخر البتة ، مجتهدة بتتبع تبشير يسوع المسيح، كما لو كانت تجهلها تماماً. كانت تصغي إليه دوماً وهي راكعة على ركبتيها وتنضم لصلواته من اجل مستمعيه، وتتحرق شوقاً من اجل تقديسهم وتبتهج لأمانتهم وتذرف الدموع أحيانا بسبب احتقارهم المشؤوم لله ولنعمه .

وكمعاونة للمخلص ، كانت تصنع المعجزات الكثيرة التي كانت غالبيتها ساطعة كقيامة الأموات إن الإنجيل لم يأت على ذكرها لان كان يجب أن يترسخ قبل الكشف عن عظائمها ، ولأنها أيضاً كانت تطلب الصمت من الكتبة المقدسين. إنها أرادت أن تبقي أعمالها العجائبية مغلفة بظلال السر ، حتى يبقى ابنها الإلهي وحده ممجداً .

ومن اجل هذا السبب بالذات لم تكن تتكلم البتة بصورة علنية ، ولكن فقط بشكل خاص . ومع أنها كانت تتوقف دوماً عند هذا الدور السري والصلوات الحارة والصبر اللطيف ، فقد صنعت مع ذلك من الارتدادات أكثر مما صنعه المبشرون بالإنجيل .

ولكن بدلاً من أن تُسر بهذه النعم الفائقة الطبيعة ، كانت تجد فيها سبباً للاتضاع ، يجعلها تتعمق أكثر في معرفة عدمها . لن تتوصل أي خليقة في تواضعها هذا الذي غلبت فيه العالم كله وحتى الله ، الله الآب والله الروح القدس ، حتى لا يظهرا المواهب التي